تعليم المرأة تعليم للأسرة كلها .

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

التعليم في الأندلس
حتى نهاية القرن الرابع

الدكتور
حازم عبد الله خضر

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

لعل من ابرز السمات التي عرفت في الأندلس ؛ الازدهار الثقافي والعلمي الذي ساد في البلاد بعيد الفتح الاسلامي بفترة قليلة ، مما كان موضع عناية المؤرخين وأصحاب التراجم الأدبية والعلمية من المشارقة والأندلسيين على حد سواء .

يقول ابن بسام : (...وبالجملة فأكثر أهل بلاد هذا الأفق اشراف عرب المشرق افتتحوها وسادات أجناد أهل الشام نزلوها فبقي النسل فيها بكل اقليم على عرق كريم فلا يكاد بلد فيها يخلو من كاتب ماهر وشاعر قاهر ؛ إن ملح ما كثير عنده بكثير وان هجا أخرس لسان جرير ...((١).

واوضح المؤرخون حب الأندلسيين للعلم والثقافة وحرصهم على التعلم وبذلهم الجهود الكبيرة والأموال الطائلة في سبيل ذلك لايبالون بجهد ولا يترددون في منح او عطاء ، يقول المقري : (... وأما حال اهل الأندلس في فنون العلوم فتحقيق الانصاف في شأنهم في هذا الباب انهم أحرص الناس على التمييز فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعه ، او يربأ بنفسه أن يرى فارغاً عاله على الناس لان هـــذا عندهم في غاية القبح والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة يشار اليه ويحال عليه وينبه قدره وذكره عند الناس ويكرم من جوار او ابتياع حاجة وما اشبه ذلك ...) (٢)

ولم يكن اقبال الاندلسيين على العلم وتعلقهم به خوفاً من سلطان او رغبة في مغنم مادي او نفوذ اجتماعي وانما كان اقبالهم (على العلم للعلم ذاته ، ومن ثم كان علماؤهم متقنين لفنون علمهم لانهم يسعون اليها مختارين غير مدفوعين بهدف غير التعلم ، وكان الرجل ينفق ما عنده من مال حتى يعلم ومن عرف

---

(١) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ق ١ م ١ ص ٢٢ .

(٢) نفح الطيب / المقرى حـ ١ ص ٢٩٠٥ .

بالعلم اصبح في مقام التكريم والاجلال، ويشير اليه الناس بالبنان ويعلو ذكره)(١) وكانت قرطبـــة — باعتبارها مركز الخلافـــة وموطن السيادة والريادة — مركزاً هاماً رئيساً من مراكز الاشعاع الثقافي والعلمي ومحط أنظـــار العلماء وطلبة العلم من انحاء الأندلس او من خارجها ، مسلمين وغير مسلمين .

وقد وصف ابن بسام قرطبة وما كانت تحتله من المكانة الرفيعة السامية من حيث العلم والثقافة :(... وحضرة قرطبة منذ استفتحت الجزيرة هي كانت منتهى الغاية ومركز الراية وام القرى وقرارة اهل الفضل والتقى ووطن اولى العلم والنهى وقلب الاقليم وينبوع متفجر العلوم ...) (٢) .

ويؤكد مكانة قرطبة العلمية واهميتها الثقافية مؤرخ آخر قائلا: (... ولما كانت قرطبة على الصفة التي ذكرنا محل الامارة ومستقر الخلافة كثر بها العلم والعلماء ، واستقر من بها من الخلفاء رض الله عنهم يقيمون همم العلماء ويكبرون من يولونه خطة القضاء ويختارون للخطة أهليها ويوفونهم حقوقهم فيها ..) (٣) ويضيق المقام لو ذهبنا نستعرض المزيد من النصوص والأخبار الواردة في المصادر القديمة حول مكانة قرطبة وأهميتها العلمية والثقافية وبخاصة ما نقله المقري عن الحجازي في نصوص كثيرة استغرقت صفحات عديدة من الجزء الثاني من كتابه(٤)وعنى الباحثون المحدثون بالنظر في سمات الحضارة الأندلسية التي يكون العلم والثقافة أحد اسسها الهامة وقواعدها الرئيسة وكان من ابرز ملاحظاتهم في ذلك ما امتازت به الحضارة الاندلسية الاسلامية من اصالة ووضوح وقوة تأثير بفضل العلم والمعرفة :(ازدهرت حضارة العرب في اسبانيا وبلغت اوجها برغم انهم لم يجدوا فيها شيئاً من الفكر والثقافة كما وجدوا في البلدان الأخرى التي افتتحوها مثل مصر وسوريا والعراق

---

(١) صورة من الشعر الأندلسي / مصطفى الشكعة ص ٤٩ .
(٢) الذخيرة ق م ص ٢٢ .
(٣) تاريخ ابن الكردبوس ص ١٤٢ .
(٤) ينظر مثلا نفح الطيب / المقرى حـ ٢ ص ٩ ومابعدها .

وفارس ، تلك البلدان التي مثلت شعوبها دوراً كبيراً في مزج الحضارات .. ففي الأندلس لم يجد العرب شيئاً بالمرة يتعلمونه ويهضمونه ليترجموه او يقلدوه ثم يقدموه ، فالحضارة الأندلسية التي كانت أجمل واعظم من ان تقارن بغيرها لم تكن قائمة على اساس فارسي او اغريقي ، لقد كانت عربية صرفة اكثر من الحضارة العربية في مكان آخر ،وما إن انحسرت تلك الموجة الحضارية عن اسبانيا حتى هوت تلك البلاد في سكون مميت وفقر مدقع فليس هناك دليل اوضح من هذا على قدرة العرب على الخلق والابتكار ...) (١) .

وليس من شك في أن جملة من العوامل قد ساعدت على هذا الازدهار وانتاج هذه الحضارة ،ربما كان من ابرزها عناية الأمراء بالعلم والثقافة ابتداء من عهد الامير عبد الرحمن الداخل الذي اوردت المصادر العديدة نصوصاً موجزة من خطبه واشعاره مما يدل على (ان لغته كانت رفيعة فعلا وأنه كان يكلم رؤساء الناس ووجوههم بكلام رفيع يسرهم ويطيب نفوسهم فينصرفون عنه مغتبطين مسرورين يتدراسون كلامه ويتهافتون بشكره كما تحدث صاحب المسهب عن طول باعه في اللغة والأدب بقوله :إن عبدالرحمن كان بالمكان العالي الذي يرتد عنه اكثر بني مروان حسيراً ...) (٢) ونذكر بعض جهود هشام بن عبد الرحمن الداخل في نشر اللغة العربية وتعميم تدريسها على الناس جميعاً في الأندلس. وجهود عبد الرحمن الاوسط الذي كان من أبرز (المعنيين بـــالثقافة حتى أرسل عباس بن ناصح إلي المشرق ليلتمس بعض الكتب ويستنسخها .. (٣)

ولم يكن عبد الرحمن الثالث أقل عناية بالثقافة من اسلافه ،بل ان من مظاهر عنايته بالثقافة والعلم نبوغ عدد كبير من العلماء والمثقفين الذي لمع نجمهم في بلاطه امثال ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد وأبي علي القالي صاحب الامالي ومنذر ابن سعيد قاضي قرطبة وخطيبها وفقيهها.

(١) شمس العرب تشرق على الغرب / سنجريد هونكة ص ٣٧٤ — ٣٧٥ .
(٢) تاريخ العرب في الأندلس د. خالد الصوفي حـ٢ ص ١٠٠ .
(٣) دولة الاسلام في الاندلس / عبدالله عنان حـ ١ ص ٢٢٦ .

ومع ذلك فإن ابنه الحكم المستنصر كان أطول منه باعاً في ميدان الثقافة والادب والعلم مما جعله موضع عناية المؤرخين والباحثين واشادتهم بجهوده وتسجيلهم لمآثره وآياديه ، يصفة المقري بقوله: (.. وكان محباً للعلوم مكرماً لأهلها جمّاعاً للكتب في انواعها بمالم يجمعه أحدٌ من الملوك قبله، قال ابن حزم أخبرني تليد الخصي: — وكان علي خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان— أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة وفي كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها الا ذكر اسماء الدواوين لاغير واقام للعلم سوقاً نافقة جلبت إليها بضائعه من كل قطر.. (١).

كما أشاد الباحثون المحدثون بجهود الحكم العلمية وعددوا سماتها ومزاياها ومنها: (انشاء مكتبة عامة تابعة للقصر ،وحفز الهمم إلى التأليف واغداق العطاء على المؤلفين.والتدقيق العلمي في الأصول اللغوية والترجمة وغيرها..(٢).وبهذا استحق الحكم ماوصفه به أحد الباحثين اذ عدّه (أباً للثقافة في الأندلس..(٣).

هذه الوثبة الثقافية الواسعة وما أدت اليه من نتائج طيبة على الصعيد الفني والعلمي للأندلس والعالم وفي شتى نواحي الفكر الانساني ومختلف جوانب الحياة، وما كان من أثار علمية بقيت عزة في جبين الحضارات الانسانية ومثلاً يحتذى على مرّ الأزمنة وتطاول الحقب واختلاف الأمكنة وتغير الناس.

هذه الوثبة بكل ماانطوت عليه لابد أن تثير اهتمام الباحثين للنظر في جوانب عديدة تتعلق بالعملية التعليمية التي كانت أساساً من اسس النهضة وركناً من أركان الثقافة والمعرفة والعلم. ويستوجب على الباحث المعني بالحضارة الاسلامية في الأندلس ان يتتبع أحوال المعلمين والمتعلمين والمناهج التي كانت تطبق في التعليم والموضوعات التي تدرس واماكن الدراسة واوقاتها ومصادر تحويلها

---

(١) نفح الطيب حـ ١ ص ٣٦١ — ٣٦٢ .

(٢) انظر : الحركة اللغوية في الأندلس / البير حبيب مطلق ص ٨٤ — ٨٧

(٣) صور من الشعر الأندلسي — الشكعة ص ٧٣ .

والاشخاص الذين يشرفون عليها وينظمون أمورها،ومن هنا فقد رأيت ان أعنى بالتعليم في الأندلس حتى نهاية القرن الرابع وهي فترة دقيقة تحتاج ألى طول نظر وتأمل ودوام استقصاء أرجو الله أن يعين على ذلك ويسدد الخطى ابتغاء وجهه وطلب مرضاته.

المؤسسات والمعاهد العلمية في هذه الفترة :

من خلال الأخبار القليلة الواردة في المصادر الأندلسية نستطيع استخلاص عدد من الاسماء للاماكن التي كانت عملية التعليم تتم فيها ومن ابرزها: المسجد. المدرسة. المكتب. المعهد او الجامعة.

أما المسجد فهو المكان الأول والأفضل الذي جرت فيه عملية التعليم لا في الأندلس فحسب وإنما في جميع الأقاليم الاسلامية وهكذا عرفت الأندلس (في فترة الولاة نوعاً من الثقافة كانت بمثابة خيوط الفجر الأولى التي تؤذن بصبح مشرق ، فقد دخل الأندلس في فترة الولاة نفرٌ من الصحابة والتابعين الذين كانوا على حظ من المعرفة الدينية وكانوا يصحبون الجند او يفدون بعد الفتح للافتاء فيما يعنّ للمسلمين من أمور الدين كتقسيم الغنائم وتحديد الضرائب وتخطيط المساجد وتفقيه الناس، واغلب الظن أن هؤلاء قد اسسوا اوائل المدارس الأندلسية حين انشئت اوائل المساجد في اشبيلية وقرطبة.. (١). وهذا أمر متوقع مفترض نظراً لأهمية المسجد في تاريخ الاسلام والمسلمين ولأنه كان منذ عصور الاسلام الأولى مركز الاشعاع الثقافي والفكري في شتى البلدان والاقاليم.

وحين نرجع إلى تاريخ المساجد في الأندلس نجد ان مسجد قرطبة في مقدمتها من حيث الأهمية العلمية والدينية (بدأ بناءه عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية بالأندلس على نمط جامع دمشق سنة ١٧٠هـ ثم زاد فيه الأمراء من بعده..) (٢).

---

(١) الأدب الاندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ص ٥٤ .

(٢) تاريخ الجامعات الاسلامية / محمد عبد الرحيم غنيمة ص ٤٢

ولايقتصر الأمر على جامع قرطبة مع أهميته ومكانتة تبعاً لمكانة قرطبة نفسها وانما يتعداه إلى المساجد الأخرى في المدن الأندلسية او حتى في نواحي قرطبة الأخرى. ذلك ان القاتحين المسلمين كانوا يحرصون على بناء المساجد عند أول دخولهم المدن المفتوحة لتكون مقراً للعبادة وطلب العلم والندوات التي يحتاج اليها في اوقات السلم والحرب ، وتبدو أهمية هذه المساجد من الوجهة العلمية في العصور الأولى – أي في فترة الولاة وفترة الامارة. حيث لايذكر عدد من المصادر اماكن أخرى للدراسة غيرها وينفى المقريّ ان يكون(لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم ، بل يقرأون جميع العلوم في المساجد ..) (١)

أما المدارس فإن عدداً من الباحثين يستبعدون ان تكون في الأندلس مدارس بل ان بعضهم ينفي ان المدارس قد انشئت او فتحت الى جانب المساجد ويزعم (خلو هذه البلاد في ذلك العصر من نظام المدارس تماماً) (٢) وان التعليم في الأندلس كان طيلة فترة حكم الأمويين – على الأقل – (مسجدياً بالمساجد الجامعة بحواضر البلاد والمساجد الصغيرة ...) (٣) .

والظاهر أن هذا الرأي يعتمد على ما اورده المقري من نفي وجود المدارس في الأندلس غير ان واقع الأمر يثبت غير هذا فقد تحدثت المصادر عن وجود المدارس في الأندلس وفي وقت مبكر من حكم الأمويين ونحن اذا نظرنا الى نظام التعليم في المغرب وجدنا اشارات الى أن المدارس كانت (منتشرة في انحاء المدن والقرى ، وقد تكون الى جوار المسجد وقد تكون بعيدة عنه ولا تكون بداخله على اية حال ...) (٤) ،على اننا نجد اشارات في بعض المصادر الأندلسية تؤكد وجود المدارس في الأندلس، ويذ كربعضها أن الحكم المستنصر افتتح : (سبعة وعشرين مكتباً منها حوالي المسجد الجامع ثلاثة وباقيها في كل ربض

---

(١) نفح الطيب / المقزى حـ١ ص ٢٩ .

(٢) تاريخ الجامعات الا سلامية ص ٦٦ وينظز تاريخ الادب الا ندلسي ، احسان عباس ص ٣٨

(٣) المصدر نفسه ص ١١٤ .

(٤) التعليم في راي القابس / احمد فؤاد الا هواني ص ٤٦ .

من ارباض المدينة ، واجرى عليهم المرتبات وعهد اليهم في الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم ... (١)

وهذا النص واضح الدلالة على وجود المدارس لا في عهد الحكم المستنصر فحسب وانما في العهود السابقة بدليل ان الحكم قد زاد عدد المدارس ولم يبدأ هو بانشائها . ولا يختلف الأمر او تقل قيمته حين تكون هذه المدارس ملحقة بالمساجد فهذا أمر لايختلف عن وجودها بعيدة عن المسجد اذ الأصل ان توجد وتقوم بمهمتها التعليمية والتربوية يقول بعض الباحثين :(.. وأما المدارس في المغرب فكانت امام الجامع او ملحقة به وتعتبر مدرسة القرويين الملحقة بالمسجد أول جامعة في العالم كما ان المستنصر خليفة قرطبة اتخذ مدرسين لتعليم اولاد الفقراء وعين مدرساً لكل ربض من ارباض قرطبة ... (٢) وهذا يؤكد ما عرف في المغرب والأندلس فعلا من اعتماد التعليم على المساجد اولا وانطلاقه منها ولكنه لاينفي ان تكون هناك مؤسسات اخرى تابعة للمساجد اوعلى مقربة منها .

ويستطيع الباحث ان يطمئن الى ترجيح وجود المدارس القريبة او الملحقة بالمساجد لاسباب عديدة منها أن التعليم في المساجد غالباً ما يقتصر على العلوم الاسلامية وربما كان مقتصراً على فئة المتقدمين في السن او المميزين من غير الاطفال لما تقتضيه طبيعة المسجد ومكانته من ابعاد الصغار عن مكان العبادة إلا في أوقات للصلاة او لمن كان منهم مميزاً مؤهلا للمحافظة على حرمة المسجد ونظافته ، وقد أوضح القابسي هذه المسألة في رسالته مستشهداً برأي الامام مالك فيما يتعلق بدخول الصبيان والصغار المساجد (٣) .

أما لفظ المكتب فيعني : موضع تعليم الأولاد وجمعه مكاتب وكتاتيب .

---

(١) البيان المغرب / ابن عذاري المراكشي حـ٢ ص ٣٥٨ .

(٢) بحوث مؤتمر رسالة المسجد ص ١١١ .

(٣) التعليم في راي القابسي / احمد فؤاد الاهواني حـ٣ ص ٤٩٥ (٢)

والمكتب المعلم والكتاب الصبيان . (١) .

والذي يبدو من التأمل في طبيعة عمل هذه المكاتب ووجود المعلمين فيها وتردد الصبيان عليها أنها ربما كانت تعني المدارس التي اشرنا اليها والتي تكون ملحقة بالمساجد او قريبة منها وهذه المكاتب (نوعان من حيث الجهة التي تولتها : أهلية وحكومية ..) (٢) .

والمقصود بالأهلية ان تكون أجور المعلمين لقاء تعليمهم التلامذة من آبائهم الذين يجرون جرايات معينة تعارف عليها المجتمع الاسلامي في اوقات معينة فضلا عن العطايا والمنح في المناسبات المعينة وبخاصة عند اتمام ختم القرآن .

ومن هنا فاننا نستطيع الترجيح بأن المكاتب هي المدارس التي تعلم الصبيان . كما ان وجود المعلمين في هذه المكاتب وورود اسمائهم في المدارس دليل على ذلك . وفضلا عن هذا كله فان المصادر الأندلسية تحدثنا عن اتخاذ بعض بيوت الاساتذة أمكنة للدراسة مع السير في التعليم وفق منهج معين يبدأ في وقت محدد وينتهي في وقت محدد كذلك ، من هذا مايحدثنا به أحد الدارسين واسمه عبد الله بن سعيد بن ابي عون الذي كان يدرس على أحد علماء القرن الرابع وهو أحمد بن سعيد بن كوثر الأنصاري من أهل طليطلة يكنى أبا عمر . يقول تلميذه عبد الله بن سعيد :

(كنت آتي اليه من قلعة رباح وغيري من المشرق ، وكنا نيفاً على أربعين تلميذا ، فكنا ندخل في داره في شهر نونبر ودجنبر وينير في مجلس قد فرش ببسط الصوف مبطنات ، والحيطان باللبود من كل حول ووسائد الصوف وفي وسطه كانون في طول قامة الإنسان مملوءاً فحماً يأخذ دفئه كل من في المجلس ، فاذا فرغ الحديث أمسكهم جميعاً وقدمت الموائد عليها ثرائد بلحوم الخرفان بالزيت العذب .... فنأكل منها ويقدم بعد ذلك لونا واحدا ونحن قد روينا

(١) الحياة العلمية في مدينة بلنسية / كريم عجيل ص ٢٢٣ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٣ .

من ذلك الطعام فكنا ننطلق قرب الظهر مع قصر النهار ولا نتعشى حتى نصح الي ذلك الطعام ، الثلاثة الاشهر ...) (١) .

إن هذه الحادثة التي رواها أحد طلبة العلم وشاهد عيان تدل على اهتمام الأندلسيين البالغ بالعلوم واستعداد العلماء لاستقبال الطلبة في بيوتهم او تخصيص مكان مستقل لهم فيها ، مع مايكلف ذلك من الأموال في بذل الطعام والشراب لما لايقل عن اربعين شخصاً ولمدة ثلاثة أشهر على الأقل . ذلك أن تحديد هذه المدة ربما يدل على تقديم الاستاذ للطعام خلال فترة الشتاء نظراً لقصر النهار أما حين يطول فان بامكان التلامذة أن يأخذوا قسطهم من الدرس والتعلم ثم ينصرفون إلى بيوتهم ، على ان يعودوا إلى الدرس بعد الغداء .

على أن النص لم يفصح عن مستوى أعمار التلامذه وإن كان ظاهرة يفيد أنهم متقدمون في السن وليسوا صبية او اطفالا ، واذا صح هذا فان المواد التي تدرس لمثل هؤلاء سوف تكون امورا تتعلق بالقرآن الكريم واللغة العربية كالفقه والنحو والبلاغة وما اليها ...

وبهذا يضاف افق جديد من آفاق العلم واماكن طلبه إن في المرحلة المتقدمة وإن في العلوم والمعارف التي تدرس فيها .

ومما تجدر الاشارة اليه أن الباحثين المعينين بالأدب الأندلسي والثقافة الاندلسية يطلقون بين فترة واخرى لفظ الجامعة والجامعات في الأندلس . ، يقول احدهم (أنشأ الأندلسيون في كل ناحية المدارس وخزائن الكتب وأقاموا في العواصم) الجامعات التي كانت وحدها مواطن العلم في اوربا زمنا طويلا (٢) . ويقول آخر متحدثاً عن النهضة العلمية في الأندلس وطلب العلم لم. وكانت المدارس في عهدهم عامرة بالتلاميذ والمعاهد العلمية مكتظة بالطلبة من سائر الاقطار ..) (٣) وقد يذهب بعض الباحثين الي ابعد من هذا حين يتحدث

(١) الصلة / ابن بشكوال حـ ١ ص ٣٦ — ٣٧ . وينظر تاريخ الادب الاندلسي / احسان عباس ص ٣٨ .

(٢) الاسلام والحضارة العربية / محمد كرد علي ص ٢٦٠ .

(٣) رحلة الأندلسي / محمد لبيب الشنوني ص ١٠٤ .

عن الأندلسيين ونهضتهم العلمية والثقافية فيقول انهم انشأوا (في كل ناحية مدارس ومكتبات ومختبرات وترجموا كتب اليونان ودرسوا العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والكيمياوية والطبية بنجاح ...) (١) .

والمتأمل في هذه النصوص ونصوص أخرى استعملت مصطلح الجامعات في الأندلس يدرك أن هذا المصطلح معروف في الأندلس وبخاصة في العواصم الكبرى مثل قرطبة واشبيلية وطليطلة وبلنسية وغرناطة .

ولكن ينبغي أن يكون تصور هذه الجامعات غير بعيد عن المساجد الجامعة فيها وبخاصة مسجد قرطبة ذلك لان هذه الجوامع هي المراكز الأولى للثقافة ونواة الدراسات المتخصصة ، ويقتضي هذا أن نتصور وجود الجامعات في هذه المساجد أو حولها. حيث يتوقع أن تكون جوامع الحواضر الكبرى قد تطورت فيها الدراسات وتوسعت سواء في مواد التدريس أو في تزايد اعداد الطلبة الوافدين اليها من الأندلس وخارجها . وبهذا تكون الأندلس قد عرفت مانسميه (التعليم العالي أو مايعبر عنه في عصورنا الحديثة بالتعليم الجامعي فكان في المسجد الجامع الذي كان يعتبر بمثابة الجامعة الحديثة أشهر جامعة في العالم ، يقول الاستاذ جونثالث فالنثيا نقلا عن العلامة دوزي أن المواد التي تدرس في التعليم الجامع العالي هي كما يلي : القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم وتفسيره وشرح الحديث النبوي وعلم المواريث ...) (٢) .

ولكن الباحث المتأمل لايملك إلا ترجيح استقلال الجامعات في أماكن قريبة من الجامع نظراً لان طلبة العلم والدارسين لم يكونوا مسلمين فقط وانما كان فيهم نصارى وغيرهم ممن يطلب العلم وتشوقه انظمة الدراسة في الأندلس وتستهوية موضوعات الدراسة (وكم قد تخرج من هذه المعاهد من فحول علماء المسلمين من كل فن وفي كل علم أمثال ابن رشد في الفلسفة وابن زهر في الطب وابن فرناس في الرياضيات وابن زيدون في الادب .

---

(١) حضارة العرب / غوستاف لوبون .

(٢) فضل الحضارة الاسلامية والعربية على العالم / مهندس زكريا هاشم ص ٣١٣ .

وكان البابا سلفستر الثاني وليون الثامن أحد ملوك الاسبان من خريجي جامعة قرطبة)(١).
ويصف باحث آخر هذه المعاهد في الأندلس ويشيد بكثرتها وانتشارها في مدن أندلسية عديدة فيقول: (..وأما في اسبانيا فقد انتشرت معاهد العلم انتشاراً كبيراً حتى ليقال إن قرطبة وحدها كان بها عدة مئات من هذه المعاهد وفي أكثر دور العلم هذه كانت تدرس الفلسفة والأدب والتاريخ والعلوم بفروعها المختلفة بجانب الدراسات الدينية.
وقد ظهرت في اسبانيا معاهد للدراسات العالية ، كتلك التي يطلق عليها الآن جامعات ، ومن أشهر الجامعات الاسبانية جامعة قرطبة واشبيلية ومالقة وغرناطة وعلى المدخل العام لجامعة غرناطة نقشت العبارة الآتية : يقوم استقرار العالم على أربعة أسس : علم الحكماء وعدل الملوك وصلاة العابدين وبأس الشجعان وإلى جامعات اسبانيا هذه كان يفد الطلاب الاوربيون للتعلم والدراسة) (٣)

المعلمون والمؤدبون

نقف على عدد من المصطلحات العلمية في المصادر الأندلسية بالنسبة للقائمين بالتعليم والتربية في هذه الفترة . واكثر المصطلحات وروداً وتكراراً في هذه المصادر مصطلح المعلم . والمؤدب . وهذان المصطلحان عرفا في المشرق قبل هذه الفترة ومارس كلا منهما عدد من العلماء والمثقفين والادباء امثال الجاحظ الذي كان مؤدباً .
وقد أورد الثعالبي جملة من الأمور التي تتعلق بهذين المصطلحين وتلقي الضوء على طبيعة دلالة كل منهما ، وذلك تحت عنوان « المعلمون والمؤدبون »
فيقول : (مثل المعلم كالمسن يشحذ ولا يقطع
من أدب أولاده ارغم حساده
الادب من الأب والصلاح من الله عز وجل .
إن المعلم والطبيب كلاهما لاينصحان اذا هما لم يكرما
وقال آخر : من علم الصبيان أصبوا عقله حتى بنو الوزراء والخلفاء) (٢).
ويبدو من التأمل في الأخبار الواردة حول هذين المصطلحين في المشرق .
والأندلس أن المعلم : هو الشخص الذي يمارس تعليم الصبيان سواء بالمسجد أو فيما يسمى بالكتاب او المدرسة الملحقة بالمسجد ، يؤكد هذا عدد غير قليل

(١) رحلة الأندلس / محمد لبيب البتنوني ص ١٠٤ .
(٢) التمثيل والمحاضرة / الثعالبي ص ١٦٣ .

من الاشارات الدالة على تعليم الصبيان ومنها هذة الترجمة (محمد بن يحيى الزهري المعروف بالاشبيلي الزاهد من اهل قرطبة يكنى أبا عبد الله ، كان معلم كتاب . روى عن محمد بن وضاح وابراهيم بن محمد الخشني قاسم بن محمد وابراهيم بن قاسم بن هلال وكان يجتمع إليه اهل الحسبة والمعلمون ويقرأون عليه ...

ومنهم محمد بن خمسين الثقفي الأحد من أهل قرطبة ..... وكان نبيلا ذكره أحمد وقال بعضهم كان معلم كتاب ...) (١) .

وقد يرد ذكر المعلم مقرونا بالطبقةالتي يعلمها ويكون بذلك أكثر تحديداً واشد توضيحاً ونصاً على وظيفة المعلم وطبيعة المهمة التي أوكلت اليه فنجد ابن الفرضي مثلاً حين يعرف بأحد هؤلاء يقول عنه : (.. على بن جابر الازدي من أهل استجه ، يكنى ابا الحسن قال لي اسماعيل كان ممن عنى بعلم وكان فاضلاً خيراً معلم صبيان ...) (٢) .

(أما المؤدب فهو الذى يؤدب أولاد الخاصة وكان بعض البلنسين من المؤدبين (٣) ولكن المتأمل في اخبار المؤدبين في الأندلس يجد أن وظيفة التأديب لا تقتصر على اولاد الخاصة فقط وانما تتعداهم إلى اولاد العامة أيضاً ، اذ تشير المصادر فعلا إلى ان بعض المؤدبين قد مارس مهنته في قصور الخلفاء والامراء بالاضافة إلى مهمته في المسجد الجامع او المدرسة حيث يؤدب الاولاد ويقوم على تعليمهم مثل : (محمد بن يحيى بن عبدالسلام الازدى النحوي المعروف بالرياحي .... وكان فقيهاً إماماً موثوقاً أخذ كتاب سيبويه رواية عن ابن النحاس وكان جيد النظر دقيق الاستنباط حاذقاً بالقياس نظر الناس عنده في الاعراب وأدب عند الملوك واستأدبه أمير المؤمنين الناصر رضي الله عنه لابنه ثم صار في خدمة المستنصر بالله ...) (٤)

(١) تاريخ العلماء في الأندلس / ابن الفرضي ج٢ ص ٤٤ – ٤٥

(٢) المصدر نفسه ج١ ص ٣١٤ وينظر ج١ ص ٢٣٧ وغيرها .

(٣) الحياة العلمية في مدينة بلنسية / كريم عجيل ص ٣٦٩ .

(٤) تاريخ العلماء / ابن الفرضي ج٢ ص ٦٨ .

واذا كان المؤدبون يختلفون عن المعلمين فان هذا الاختلاف يبدو في أوضح صورة في طبيعة المواد التي تدرس حيث يؤكد المعلم على تحفيظ القرآن الكريم وما يتعلق به ، بينما يؤكد المؤدب على علوم العربية والتاريخ والاخلاق وغيرها مما يحتاجه في تقويم الشخصية وتربية الخلق القويم والعقل السليم المفكر .

وكذلك يبدو الفرق بين المعلم والمؤدب في المرحلة التعليمية التي يباشرها كل منهما . حيث نرجح ان تأتي خطوة تعليم الصبيان ثم تأديبهم بعد ذلك . وفضلا عن هذا فان وظيفة التأديب ولقب المؤدب ربما افاد السعة في العلم والفهم والشمول في الثقافة ، وتحدثنا المصادر ان عددا من المؤدبين قد تخصصوا بمواد معينة ونسبت التأديب بها اليهم .

فهذا : (محمد بن حمدون الفافقي الوراق من أهل قرطبة ... ... وكان حسن الخط ضابطاً ادب بالعربية ...) ومثله محمد بن مسعود الخطيب الذي كان خطيباً شاعرا وأديباً بالعربية زمناً (٣).

ومن المتخصصين أيضاً (عبدالله بن تمام بن ازهر الكندي الفرائضي ..... وكان مؤدباً بالحساب ...) (٤) .

ولكن لاينبغي للباحث أن يبالغ في نوع التخصص او اتساع معنى التأديب حتى يخرجه عن نظيره في المشرق ذلك ان وظيفة التأديب في المشرق تعني الالمام من كل علم بطرف . وتدريس طالب العلم أمّات العلوم وقواعد الثقافة والسلوك وعلى هذا فاننا حين نقرأ أن فلاناً كان مؤدباً بالحساب او العربية او غيرهما فان ذلك لايعني وقوفه عند كل منها وانما يفيد التأكيد على تلك المادة لمن هو بحاجة اليها دون اهمال المواد الاخرى الضرورية وفي حدود القواعد الرئيسة العامة .

---

(٣) المصدر نفسه حـ ٢ ص ٧٥ و ص ٩٠ .

(٤) المصدر نفسه حـ١ ص ٢٣٧ .

وإلى جانب هذين المصطلحين نجد المصادر تورد مصطلحات أخرى في مواضع قليلة ولمحات خاطفة موجزة ربما دلت على مراحل علمية متقدمة أو على درجة علمية ومكانة ثقافية تشير الي تقدير لعلم صاحبها ومكانته في المجتمع .

ففي ترجمة أندلسية نقرأ هذا التعريف: (أحمد بن الحباب أبو عمر ، قرطبي من أهل العربية والادب ، كان استاذاً مقدماً ، أخبرني أبو محمد علي بن أحمد وغيره أنه كان مع حذقه بالأدب وتصرفه في العربية شديد الغفلة في غير ذلك من أموره وكان حياً في الدولة العامرية ... (١)) ، ويرى القارىء لهذا النص اطلاق لقب استاذ مقدم على صاحب الترجمة ، ولكنه لايستطيع الجزم بدلالة هذا اللقب هل هو لقب تكريمي للدلالة على سعة العلم وقوة الفهم وطول الباع بالعربية والأدب أم أنه لقب لمن يمارس مهنة التدريس لفئة متقدمة من المتعلمين ولمواد وموضوعات متخصصة تعتمد السعة والشمول والعمق والاستقصاء ، ربما كان الرأي الثاني هو الذي يطمئن الباحث الى ترجيحه نظراً لانتشار التعليم في الأندلس وذيوع المدارس والجامعات على نحو ما اشرنا إليه في الصفحات السابقة ، كما أن النص الذي أورده ابن الفرضي حول تردد عدد من التلاميذ المتقدمين في السن على دار احد العلماء لتلقي العلم يشكل علامة تعضد هذا الرأي وتقوي ترجيحه ، على اننا حتى لو أخذنا بالرأي الأول والقائل بأن اللقب للتكريم فانه لا يكون بعيداً عن الرأي الثاني ذلك أن الأنسان الذي يكرم لابد أن تكون له منزلة علمية مرموقة وجهود تعليمية واضحة وصلات ثقافية متينة بالعلماء والمتعلمين على حد سواء .

وفضلا عن هذا المصطلح فان كتب الأدب والتراجم الأدبية تزخر بمصطلحات واوصاف تكون أقرب في الدلالة على التكريم والتقدير والاعتراف بمكانة الشخص في فن من فنون اللغة او الادب او التاريخ او غير ذلك مما عرف في

---

(١)- جذوة المقتبس / الحميدي ص ١١٩ .

ميدان العلوم العربية ، فنقرأ مثلا هذه الترجمة (قاسم بن أصبغ بن أبي الاسود .... كان من أهل الرواية والحديث وكان أديباً بليغ اللسان جيد القلم) (٢) ومن ذلك أيضاً : (محمد بن عبد الرؤوف بن محمد بن عبد الحميد ..... وكان كاتباً بليغاً عالماً باللغة والغريب والتواريخ وألف في شعراء الأندلس كتاباً بلغ فيه الغاية .) (٣) . وهكذا لو مضينا مع العديد من التراجم لوجدنا مصطلحات مثل (الأديب.النحوي.كاتب . بليغ .شاعر.خطيب . مصقع...) (٤) ولكن هذه الالقاب جميعاً واضحة الدلالة—إن لم تكن واضحة النص— على غاية التكريم واظهار فضل العلم وسعة الاطلاع قبل أي شئ آخر .

مناهج التعليم وموضوعاته :

بعد أن عرضنا لأمور عديدة تتعلق بالتعليم لم يعد من الصعب على الباحث أن يلاحظ الموضوعات الرئيسة التي تدرس في المدارس والمكاتب وما سمي بالجامعات ، كما يستطيع أن يتتبع المناهج التي كانت تسير عليها تلك المؤسسات العلمية والنظم التي تطبقها على المعلمين والمتعلمين . ونبادر إلى التذكير بأن أصول الموضوعات التي عرف التأكيد عليها في جميع الأقاليم الاسلامية : القرآن الكريم والسنة النبوية وما يتعلق بهما من علوم عديدة وما انبثق عنهما من علوم العربية كالنحو والصرف والبلاغة أما أهل المشرق فقد كان منهجهم البدء بالقرآن الكريم وغالباً مايكون التأكيد عليه مستمراً حتى يتم حفظه واتقانه بالشرح والتفسير ومناقشة معاني الآي للوقوف على مراميها واسرارها ثم ينُقل الى دراسة المواد الأخرى من علوم العربية والرواية والشعر وما الى ذلك ، وربما علموه الخط والحساب او غير ذلك مما يختار طبقاً لمواهبه ورغباته . ويشير بعض النصوص الى أن أهل المغرب كانوا يؤكدون على افراد القرآن الكريم بالدراسة والبحث والنظر في المعاني وهم بذلك لايكادون يختلفون عن أهل المشرق من حيث البدء بالقرآن الكريم والتفرغ له أولاً .

---

(٢)— تاريخ علماء الأندلسي / ابن الفرضي حـ١ ص ٣٦٧ .

(٣)— المصدر نفسه حـ ٢ ص ٦٢ .

(٤)— الحياة العلمية في مدينة بلنسية ص ٣٦٩ .

أما في الأندلس فان القوم يختلفون في مناهجهم التدريسية وبخاصة فيما يتعلق منها بالقرآن الكريم يقول أبو بكر بن العربي : (... وللقوم في التعليم سيرة بديعة وهي أن الصغير اذا عقل بعثوه إلى المكتب فيتعلم الخط والحساب والعربية. فاذا حذقه كله أو حذق منه ماقدّر له خرج إلى المقرئ فلقّنه كتاب الله فحفظ منه كل يوم ربع حزب او نصفه او حزباً ...) (١) .

ويؤكد ابن خلدون هذه الطريقة عند حديثه عن التعليم للصغار ومذهب أهل الأمصار فيه فيقول : (... وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو وهذا هو الذي يراعونه في التعليم ، إلا انه لما كان القرآن اصل ذلك وأسّه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلاً في التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل واخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب ولا تختص عنايتهم فيه بالخط اكثر من جميعها الي أن يخرج الولد من عمر البلوغ ...) (٢).

و لا يخفى على الباحث ان فرقاً يبدو بين رأي ابي بكر بن العربي ورأي ابن خلدون فالأول صريح في النص على البدء بعلوم غير القرآن الكريم بينما نجد ابن خلدون يؤكد اهمية القرآن وربما يفهم فيه البدء بدراسته مع الأخذ بالعلوم الاخرى.

على ان الرأيين يتفقان في التأكيد على اهتمام الأندلسيين بالقرآن وعلى اختلاف أهل الأندلس عن اهل المشرق في الجمع بين تدريس القرآن وتدريس علوم أخرى قبله او اثناء دراسته وتحفيظه ، بل اننا نفهم من بعض النصوص أن الصبيان يتعلمون القرآن دون الاشارة الى تعلم شيء آخر معه . ففي اخبار الصميل بن حاتم (١) انه (خطر يوماً بمؤدب يؤدب الصبيان وهو يقرأ وتلك الأيام نداولها بين الناس ...) (٢) .

(١)- تاريخ التربية الاسلامية احمد شلبي ص ٢٣ وينظر التعليم في رآي القابسي / الاهواني ص ٥٣ .

(٢)- مقدمة ابن خلدون ص ٥٣٨ ، وينظر تاريخ التربية الاسلامية / احمد شلبي ص ٣٥ .

(١)- تاريخ افتتاح الأندلس /ابن القوطية ص ٦٣ .

وقد لاحظ بعض الباحثين الفرق بين الطريقتين من خلال ما استطاع الوقوف عليه من مزايا وعيوب كل منهما .

فالبدء بالقرآن الكريم والتأكيد عليه في المشرق له آثار وفوائد كبيرة في الحفظ والاتقان لتفتح الذهن وتوقد الذاكرة وحدتها عند الصبي غالباً .

ولكن من عيوبها (أن الحافظ للقرآن من غير معنى عرضة لفهم المعاني الخاطئة التي قد تبقى في ذهنه على مر الأيام ...) (١) .

ونجد من مزايا الطريقة الاندلسية في البدء بعلوم العربية او بها وبالقرآن الكريم والتأكيد على اتقانها يؤدي الى وضوح في الحفظ والفهم بالاضافة الى ما يؤدي اليه من سعة ادراك وعمق في الفهم والقدرة على الاستيعاب في وقت مبكر من حياة الصبي ، وبالتالي فان لهذه الطريقة ابعاداً أخرى في الحياة الثقافية والعلمية على الصعيد الأندلسي والمشرقي أيضاً ، حيث كان من نتائجها تقوية الصلات بين المشرق والأندلس وكثرة الرحلات العلمية من الأندلس واليها ، وذلك لتتوفر المصادر المشرقية التي يستعين بها المؤدبون والمعلمون في تدريس علوم التربية وفي مقدمتها دواوين الشعراء في مختلف العصور وكتب التاريخ والتراجم والأدب وعلوم القرآن الكريم وكتب الحديث واللغة وهكذا كان (لطريقة التعليم الأندلسية — التي التزمت تلقين الأطفال الشعر والحكمة والمثل والتاريخ المشرقي بجوار حفظ القرآن الكريم — اثر دون شك في حيوية هذا العامل واستمرار فاعليته ...) (٢) ويرى باحث آخر أن (تدريس الفقه والحديث والعربية هو الشيء الغالب على جماهير المدرسين والمؤدبين ، وهم في تدريسهم يعتمدون الكتاب المشرقي في الغالب ، ولذلك هاجرت كتب المشارقة الى الأندلس بكثرة ، وكثرت رحلة الأندلسيين الى المشرق في طلب العلم ...) (٣) ومع هذه المزايا التي اختصت بها طريقة الأندلسيين والآثار

---

(١) ظهر الاسلام / احمد امين حـ ٣ ص ٨ .

(٢) دراسات ادبية في الشعر الأندلسي معد شلبي ص ١٠ .

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي — عصر سيادة قرطبة/ احسان عباس ص ٣٨ .

التي احدثتها في الأندلس والمشرق فانها لم تخل من بعض العيوب التي تبدو للمتأمل في جوانبها وأبعادها في أحوال المتعلمين (وعيب هذه الطريقة التعرض لأن يتخلف بعض المعلمين عن حفظ القرآن او يتعلمون العلوم العربية ثم ينقطعون عن التعلم ولذلك نصح بعضهم بأن يحفظ الطفل القرآن اول الأمر ولو من غير فهم ثم يتعلم العلوم العربية ...) (١).

التعليم للذكور والاناث :

من المعروف الواضح أن القرآن الكريم حث على طلب العلم مطلقاً دون تمييز بين ذكر او انثى وجعل المسؤولية مشتركة وقائمة على عاتق كل منهما فقال تعالى (هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون ..) .

ونص الحديث الشريف على أن (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) (٢) وبهذا كان العلم منتشراً بين الذكور والاناث وهرع الناس الى التعبد بطلب العلم ابتغاء مرضاة الله لافرق في ذلك بين ذكر وانثى . وأذا جئنا الى الأندلس وجدنا هذه السمة واضحة أيضاً فقد وردت اشارات تؤكد اهتمام الأندلسيين بالمرأة وتعليمها ومن ذلك ما اشرنا اليه من ذكر فخر المعلمة التي توفيت سنة سبع وعشرين وثلاثمائة ، ولا شك أن وجود المعلمة دليل على وجود المتعلمات من الصبايا . وبالاضافة الى هذا فقد اشارت رسالة القابسي في القرن الرابع الهجري الى العناية بتعليم المرأة على نطاق واسع حتى ان بعض النصوص تشير الى وجود هذا النوع من التعليم وبشكل مختلط في بعض الاماكن في المغرب مما حدا بالقابسي أن ينبه على وجوب الفصل بينهن وبين الذكور قائلا : (... ومن صلاحهم وحسن النظر لهم الا يخلط بين الذكران والاناث وقد قال سحنون : اكره للمعلم ان يعلم الجواري ويخلطهن بالغلمان لان ذلك فساد لهن ..) (٣)

---

(١) ظهر الاسلام / احمد امين ج ص ٨ .

(٢) —

(٣) — التعليم في راي القابسي ص ٨٦ — ٨٧ .

وما حصل في المغرب ليس بعيداً عن الأندلس لقرب ما بين الاقليمين من الصلات وشدة العلاقات والاواصر العلمية والثقافية بالاضـــافة الى الاواصر الدينية والاجتماعية وغيرها ، بل اننا نجد من الأخبار ما يؤكد هذا في الأندلس ويبرز اهتمام القوم بالمرأة انطلاقاً من عناية الاسلام بها في كافة جوانب الحياة الانسانية .

يحدثنا ابن حزم الاندلسي الامام الفقية والعالم الأديب عن أيام طلبه للعلم ومصادر تلقيه له وينص على دور النساء العالمات في تكوين ثقافته وتوسيع مداركه ومساعدته على حفظ القرآن الكريم والاطلاع على السنة وعلوم العربية والشعر وغير ذلك من أسس الثقافته الاسلامية في عصره او في اواخر القرن الرابع الهجري حين كان طفلا صغيراً وصبياً يتعلّم في الكتاب او في بيت والده ؛ فيقول :

(...ولقد شاهدت من النساء وعلمت من اسرارهن مالايكاد يعلمه غيري لاني ربيت في حجورهن ونشأت بين ايديهن ولم اعرف غيرهنّ ولا جالست الرجال الا وأنا في حد الشباب وحين تفيّل وجهي ،وهنّ علمنني القرآن ورويني من الاشعار ودربنني على الخط ...) (١)

ونص ابن حزم هذا يشير بوضوح إلى معرفة النساء القرآن الكريم والحديث الشريف واشعار العرب وأيامهم وكذلك معرفتهن للخط وتحسينه وتعليمه وكل هذا لايتأتى الا لمن كانت على خط وافر من العلم والفهم وبالتالي فان الباحث يستطيع الاستدلال على وجود التعليم في صفوف الاناث ، ولكن هذا التعليم لايرقى إلى مستوى تعليم الذكور من حيث الكم بسبب ظروف اجتماعية وبيئية مختلفة ونظرة سريعة في عدد العلماء والمؤرخين والمفسرين والادباء والشعراء والمثقفين من الرجال في الاندلس يؤكد هذا ويعضده .

ومما يتعلق بمناهج التعليم : أوقات الدوام في المكاتب والمدارس والعطل التي

---

(١) – طوق الحمامة / ابن حزم الأندلسي ص ٥٠

تتوقف فيها الدراسة في تلك المؤسسات العلمية وهل كان ذلك حسب نظام ثابت معين ام أنه متروك لاجتهاد المعلم وأختياره وظروفه المتغيرة ؟.

لايكاد الباحث يجد أمامه من النصوص ما يجيب على هذه الأمور وهي لازمة لمعرفة النظام الكامل الذى كان متبعاً في المدارس والمكاتب الأندلسية. الا اننا إذا رجعنا إلى رسالة القابسي باعتبارها نموذجاً او صورة لبعض ماكان في المغرب من احوال التعليم والمعلمين ، والصلة وثيقة بين المغرب والاندلس . وجدنا إشارات ألى أن اللوام في المدرسة والكتاب يستمر منذ الصباح وحتى قبيل صلاة الظهر حيث ينصرف المتعلمون إلى بيوتهم للصلاة والغداء ، ثم يعودون إلى المكتب حتى صلاة العصر او بعدها بقليل .

ويتعطل الدرس يوم الجمعة وقد ينصرف الطلبة ظهر الخميس أيضاً ليأخذوا قسطهم من الراحة والاستعداد لبداية اسبوع تعليمي جديد يوم السبت .(١) وتشير رسالة القابسي ايضاً إلى بعض الجوانب المتعلقة بتخرج حافظ القرآن واتمامه الختمة وما يستحقه معلمه من الهدايا والمنح وما يقام في تلك المناسبة من احتفاء يشمل المتعلمين جميعاً في طعام او هدايا .

أما السن التي يبدأ عندها تعليم الطفل فلا توجد اشارة صريحة فيها ولكن الذى يبدو وللمتأمل في عموم الاخبار والروايات المتعلقة بالتعليم ومواده وموضوعاته أن الطفل اذا بلغ سن الاستيعاب والقدرة على الحفظ والضبط وبعد ان يكون قد تلقى توجيهات اساسية ومبادىء اولية في قواعد السلوك والأخلاق وطبيعة العلاقات وحسن التصرف في العبادة والتعامل في اسرته يدفع الى المكتب ، ويرى بعض الباحثين ان الاولاد: (...بنون وبنات أول مايدفعون إلى المكتب للتعليم بعد ان اكتسبوا في الاسرة والمجتمع ماشاء لهم من المعرفة ولم تكن هناك سن معينة يبدأ عندها الطفل في تلقي العلم وإنما كان الامر متروكاً لتقدير آباء الصبيان فاذا وجدوا أن الطفل بدأ في التمييز والادراك دفعوا به إلى المكتب ، ويبدو ان سن الخامسة

---

(١) – ينظر نص رسالة القابسي في كتاب التعليم في راي القابسي ص ٢٦٤ .

إلى السابعة بشكل عام هي التي يدفع عندها الصبي إلى المكتب ... (١) . وهذا فعلا مما يشجع على ترجيح ان يكون الحال في الاندلس على مثل الحال بالمغرب او حتى في اى قليم اسلامي نظرا لأن مرحلة تعليم القرآن الكريم تبدأ مع سن التمييز والقدرة على الحفظ وهي غالباً ما تكون بين الخامسة والسابعة . اما السن التي تنتهي عندها الدراسة فتقدر هي الاخرى بما لا يتجاوز الثالثة عشرة ذلك لان حفظ القرآن الكريم وقراءة تفسيره ومتابعة العديد من اسرار آياته قد لايقل الوقت الذي يستغرقه عن ثلاث أو أربع سنوات فيكون الطفل قد بلغ العاشرة او تجاوزها بقليل عند اتمامه حفظ القرآن ، فاذا اضفنا إلى ذلك المدة التي يستغرقها المتعلم في حفظ المزيد من اشعار العرب وأيامهم واتقان قواعد النحو واللغة والصرف .

وقدر وافر من علوم البلاغة ... والتي تمتد احياناً إلى ثلاث او اربع سنوات كان معنى ذلك أن الصبي يغادر المكتب او المدرسة في سن الثانيةاو الثالثة عشرة . أى قبل سن البلوغ . وفي رسالة القابسي المغربي ما يفيد هذا ويقوى ترجيحه . فالقابسي يحذر المعلم من الصبي الذى يبلغ عنده الحلم (٢).

ومما يتعلق بهذه الموضوعات عدد المتعلمين في كل مكتب او مدرسة وهو أمر لم تعن به المصادر الأندلسية او المشرقية واكثر الاشارات الواردة فيها حول المتعلمين تورد اللفظ بصيغة الجمع : الصبية او الصبيان . وهو جمع لايسمح بالمبالغة في التقدير وبخاصة اذا تذكرنا ان اكثر المدارس او المكاتب التي ورد ذكرها في المصادر تتحدث عن معلم واحد ولا تشير إلى وجود معلمين كثيرين في المكتب الواحد .

الالزام والمجانية :

يستفاد من رساله القابسي ان التعليم في المغرب لاصلة للحاكم او السلطان به (وانما يفتتح المعلمون الكتاتيب من تلقاء أنفسهم ويدفع لهم الآباء بأبنائهم

(١) – الحياة العلمية في مدينة بلنسية / كريم عجيل ص ٢٢٤

(٢) – ينظر التعلم في رأي القابس / نص القابس ص ٢٨٦ – ٢٨٧ .

حسب رغبتهم ويتلقى الصبيان التعلم في نظير أجر يدفعونه الى المعلم ، قد يكون مشاهرة وقد يكون مساناة وقد يكون بمقدار ما تعلم الصبي ...) (١) .

ومعنى ذلك ان التعليم في المغرب لم يكن مجانياً بصورة عامة وانما كان بأجر يختلف باختلاف الظروف وطبيعة المواد التي يتعلمها الصبي وربما قدرة الوالد وحالته المادية وغير ذلك من الأمور المتعلقة بالمجتمع في هذه الناحية .

كما أن الرأي الذي اورده الأهواني مقتبساً من رسالة القابسي يشير كذلك الى الأختيار في التعليم اذ لاتحتوي الرسالة المذكورة على نص يصرح بالزامية التعليم وتدخل السلطة في أجبار الاولاد على الذهاب الى المكاتب والتعلم .

بل ان الامر على عكس ذلك كما يفهم من نصوص الرسالة حين تجرد السلطان من اية صلة بالتعليم والمعلمين . ولكننا اذا رجعنا الى الأندلس وتذكرنا الخطوة التي قام بها هشام بن عبد الرحمن حين (أصدر منشوراً رسمياً يحتم فيه ضرورة فرض تعليم اللغة العربية على المستعربين الذين يشاركون المسلمين في مدارسهم، وبعد ذلك بأمد قليل أصدر منشوراً عاماً الى جميع السكان أياً كانت ديانتم بضرورة تعلم اللغة العربية لتكون اللغة الرسمية ..) (٢) .

فأننا نفهم منها تعميم التعليم والزاميته . ذلك أن فرض تعلم اللغة العربية لابد أن يكون في مؤسسات معنية ولابد أن تكون للأمير اجراءات أخرى تساعد على تنفيذ أمره بضرورة تعلم اللغة . وهذه مأثرة من المآثر التي تذكر للأمير هشام وهي توحي كذلك باهتمام الامراء بصورة عامة بتعلم اللغة العربية .

وثمة ملاحظة أخرى هي أن تعلم اللغة العربية — كما يبدو لي — لم يكن غاية في ذاته وانما كان مدخلا ووسيلة للاقبال على القرآن الكريم وفهم الاسلام من خلاله وخلال السنة النبوية المطهرة وقد كان لهذا قدر وافر من السمات والدلائل

---

(١) – التعليم في راي القابسي / احمد فؤاد الاهواني ص ٤٦ .

(٢) – دولة الاسلام في الأندلس ،عنان . ص ٢٢٩ وينظر قرطبة في التاريخ الاسلامي ص ٨٩ .

التي اوضحت انتشار اللغة العربية ثم انتشار الاسلام باقبال السكان على اعتناقه ثم اسهامهم بعد ذلك في بناء الحضارة الاسلامية في الأندلس (١). واخيراً فان اجراء الأمير هشام لابد أن يفهم منه المجانية في التعليم حين يحرص الأمير على توفير المعلمين واماكن التعليم لتدريس اللغة للناس جميعاً . اذ ليس من المعقول ان يكلف الأمير الناس مالا يطيقون اذ يحتاج الأمر منهم — عند عدم تدخل السلطة — الى اموال طائلة وجهود مضنية وسيكون مع ذلك محدوداً ومحصوراً في القادرين على القيام باعباء التعليم وتكاليفه المالية .

بل ان الباحث يستطيع الترجيح بان مراد الأمير هشام من الأوامر التي اصدرها بتعليم اللغة ان تكون مأثرة لم يسبق اليها في الأندلس والمغرب ، وربما كان مصمماً على ان يكون للأندلس اجراء خاص ومحمدة من المحامد التي لم تكن في الدول السابقة في الأندلس او المجاورة لها .

على ان هذا لايعني انعدام التعليم بالاجرة في الاندلس فهناك المتخصصون الذين يحرصون على المضي في الشوط إلى اقصى غاياته في طلب العلم والتخصص بمادة او مواد معينة مما يحتاج إلى رحلة وتنقل وذلك يكلف مبالغ كبيرة من المال. وعلى هذا يمكن تفسير خطوة الحكم المستنصر التي اشار اليها بعض المؤرخين وعدوها من محاسنة ومآثره التي تذكر بمزيد الفخر والاعتزاز وتلك الخطوة هي (اتخاذه المؤدبين يعلّمون اولاد الضعفاء والمساكين القرآن حوالي المسجد الجامع وبكل ربض من ارباض قرطبة وأجرى عليهم المرتبات وعهد اليهم في الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم ..) (٢)

والنص يشير إلى ابعد من المجانية حيث يؤكد حقيقة هامة وهي دفع المرتبات لطلبة العلم لكي يستمروا في دراستهم ويخلصوا في جهودهم، ولا شك ان دفع مرتبات وأجور المعلمين يكون من البداهة والوضوح بحيث لايحتاج إلى برهان.

---

(١) — ينظر البحث المنشور في مجلة الجامعة العدد الخامس ص ٧٢ — ٧٩ بعنوان (انتشار اللغة العربية في الأندلس) .

(٢) — البيان المغرب / ابن عذاري المراكشي حـ٢ ص ٢٤٠ .

ومن هنا فقد وصف الباحثون التعليم في الاندلس بصفتين هما الالزام والمجانية (يقول ريبرا في محاضرة له : يمكن وصف التعليم على عهد الحكم المستنصر بوصفين أحدهما الالزام والآخر المجانية ..) (١).

بل ان هناك من يرى ان الاندلس قد انفردت بمجانية التعليم من بين الاقاليم الاسلامية في المشرق والمغرب معتمدين على خطوة الحكم هذه في فتح المدارس المجانية ومن ذلك قول بعضهم :

(...إن بعض البلدان العربية مثل اسبانيا قد جعلت التعليم للجميع مجانياً وقد افتتح الحكم الثاني حوالي ٩٦٥م في قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة لابناء الفقراء بالاضافة إلى المدارس الثماني التي كانت فيها فعلاً ...) (٢)

خاتمة

وبعد : فهذه محاولة للكشف عن حالة التعليم في الأندلس حتى القرن الرابع الهجري بذلت فيها جهوداً كبيرة مسعيناً بالله على العقبات العديدة التي اعترضت طريق البحث ولعل من اهمها وابرزها قلة المعلومات والأخبار التي تتعلق بالعملية التعليمية التي كانت سبباً في نهضة كبيرة على صعيد الثقافة والعلوم . ومع ذلك فأني اعتقد ان البحث قد توصل الى تسليط الأضواء على امور عديدة يمكن ان يستهدي بها في تكوين صورة ما عن حالة التعليم في هذه الفترة . وفي مقدمة ملامح هذه الصورة : — تعلق الأندلسيين حكاماً ومحكومين بالعلم وحرصهم على طلبه وبذلهم الغالي والنفيس في دعمه وتشجيع انتشاره بين الناس حتى وصفت الأندلس في تلك الفترة بأنها لاتعرف الأمية في صفوف ابنائها. ومنها أن أصول الثقافة الاسلامية والمتمثلة في القرآن والحديث وعلومهما واللغة وعلومها كانت في مقدمة مواد الدراسة وموضوعاتها ثم توسعت مع تقدم الزمن وتطور الحياة حتى شملت علوماً ومعارف أخرى وظهر متخصصون في عديد من فروع الثقافة والمعرفة .

---

(١) – ابن زيدون — علي عبد العظيم ص ٢٩ .

(٢) – شمس العرب تشرق على الغرب ص ٣٩٢ / سنجريد هونكة.

ومنها الجهود التي بذلت على الصعيد الرسمي من قبل الأمراء والخلفاء حتى استحقت الحركة الثقافية والتعليمية وصف الالزام والمجانية . بل والتشجيع على طلب العلم بدفع مرتبات للطلاب لتشجيعهم وحثهم على الجد والمثابرة في طلب العلم ومنها اسهام المرأة في العملية التعليمية معلمة وطالبة علم. وتكون الأندلس بذلك من البلدان الرئيسة التي استوعبت التوجيهات القرآنية في تعليم المرأة وتثقيفها لتؤدي رسالتها في بناء المجتمع وتربية الأجيال على الخلق الاستقامة والتضحية وحب العلم . في وقت كانت الدول الاوربية المجاورة للاندلس لاتكاد تعترف للمرأة بحق الحياة فضلا عن تعليمها او الاعتراف لها بالحقوق الطبيعية الانسانية الأخرى .

وأخيراً فان مما اشار اليه البحث من ملامح الصورة التعليمية لهذه الفترة استيعابها للمراحل التعليمية المختلفة دون الاقتصار على تعليم الصغار القراءة والكتابة . وقد كان لذلك ابعاد وآثار في الحضارة الاسلامية في الأندلس جعلها ام الحضارات ايجابية وتقدماً وازدهاراً وتجاوباً مع حاجات الناس ومتطلبات الحياة الانسانية الكريمة على اسس من الأخوة الصادقة والتعاون المثمر في شتى ميادين المجتمع. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

مصادر البحث ومراجعه

١ — ابن زيدون / علي عبد العظيم
سلسلة اعلام العرب (٦٦) — طبع دار الكتاب العربي ١٩٦٧ القاهرة

٢ — الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة / أحمد هيكل .
الطبعة الثالثة دار المعارف بمصر ١٩٦٧

٣ — الأسلام والحضارة العربية . محمد كرد علي .
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر / ١٩٦١ الطبعة الثالثة .

٤ — بحوث مؤتمر رسالة المسجد .
دار عكاظ للطباعة والنشر .جدة / السعودية ١٣٩٥ / ١٩٧٥

٥ — البيان المغرب ابن عذاري المراكشي .

٦ — تاريخ الأدب الأندلسي — عصر سيادة قرطبة . احسان عباس .
دار الثقافة بيروت ١٩٦٩
٧ — تاريخ افتتاح الأندلس / ابن القوطية .
حققه وشرحه : عبدالله انيس الطباع . دار النشر للجامعيين .
٨ — تاريخ الأندلس / ابن الكردبوس ، ووصفه لابن الشباط .
تحقيق أحمد مختار العبادي — معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٧١
٩ — تاريخ الجامعات الأسلامية / محمد عبد الرحيم غنيمة .
دار الطباعة المغربية — مطبعة كريماديس / شارع محمد الطريسي
١٧ — تطوان — المغرب ١٩٥٣
١٠ — تاريخ العرب في الأندلس / خالد الصوفي .
منشورات كلية الآداب . الجامعة الليبية .
١١ — تاريخ علماء الأندلس ابن الفرضي المتوفي سنة ٤٠٣ الدار المصرية
للتأليف والترجمة . ١٩٦٦
١٢ — التعليم في رأي القابسي / أحمد فؤاد الأهواني .
١٢ — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٤ / ١٩٤٥ .
١٣ — التمثيل والمحاضرة / الثعالبي . أبو منصور عبد الملك بن محمد ،
تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو . دار احياء الكتب العربية / عيسي
البابي الحلبي .
١٤ — جذوة المقتبس / الحميدي .
تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو .دار احياء الكتب العربية / عيسى البابي
الحلبي .
نشر وتصحيح وتحقيق : مكتب نشر الثقافة الاسلامية / الطبعة الأولى
١٣٧٢ / ١٩٥٢
١٥ — الحركة اللغوية في الأندلس البير حبيب مطلق .
المكتبة العصرية / صيدا / بيروت . ١٩٦٧
١٦ — حضارة العرب غوستاف لوبون .
ترجمة عادل زعيتر . طبع دار احياء الكتب . الحلبي وشركاؤه

١٧ ــ الحياة العلمية في مدينة بلنسيه كريم عجيل .
الطبعة الأولى / طبع مؤسسة الرسالة ١٣٩٦ / ١٩٧٦
١٨ ــ دراسات أدبية في الشعر الأندلسي / سعد شلبي .
دار نهضة مصر للطبع والنشر / الفجالة ــ القاهرة .
١٩ ــ دراسات في الحضارة الاسلامية : الفكر الاسلامي ومنابعه M.M. Shariq
ترجمة : أحمد شبلي . الطبعة الثانية ١٩٦٦ / مكتبة النهضة المصرية.
٢٠ ــ دولة الاسلام في الأندلس . محمد عبدالله عنان .
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .الطبعة الثالثة ١٩٦٠
٢١ ــ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة أبو الحسن بن بسام .
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٨ / ١٩٣٩
٢٢ ــ رحلة الأندلس محمد لبيب البتنوني .
الطبعة الأولى / مطبعة الكشكول ١٩٢٧
٢٣ ــ شمس العرب تشرق على الغرب / سنجريد هونكه
منشورات المكتب التجاري ــ بيروت .الطبعة الثانية ١٩٦٩
٢٤ ــ صحيح مسلم .
طبعة دار احياء التراث العربي ــ بيروت لبنان / الطبعة الثانية ١٩٧٢
٢٥ ــ صور من الشعر الأندلسي مصطفى الشكعه .
دار النهضة العربية للطباعة والنشر / بيروت ص.ب ٧٤٩ .
٢٦ ــ طوق الحمامة / ابن حزم الأندلسي .
ت ــ حسن كامل الصيرفي / ابراهيم الابياري . مطبعة الاستقامة
بالقاهرة .
٢٧ ــ ظهر الاسلام أحمد أمين
دار احياء الكتب العربية / عيسى البابي الحلبي وشركاؤه

٢٨ – فضل الحضارة الاسلامية على العالم . مهندس زكريا هاشم .
دار نهضة مصر للطبع والنشر .
٢٩ – مقدمة ابن خلدون
دار احياء التراث / بيروت . لبنان
٣٠ – نفح الطيب المقري التلمساني .
ت: محمد محي الدين عبد الحميد – الطبعة الأولى ١٣٦٧ / ١٩٤٩
مطبعة السعادة / مصر .